



محاولة في تاريخ الزوايا والطرقية بالمغرب

Michaux Bellaire
ترجمة ذ. الحسين فقادي*

قامت الطوائف الدينية بدور كبير في تاريخ الإسلام العام وخصوصا في تاريخ ما يعرف اليوم بشمالنا الإفريقي.

إن التأريخ الكامل لمجموع الزوايا والطرقية المنحدرة منها سيشكل عملا جسيما أنجز جزء منه في الجزائر، وتمت ملامسة بعض جوانبه في المغرب، ولا يمكن له أن يكون مثمرا إلا بتعاون لأمد طويل وبكل أناة بين كافة مصالح الشؤون الأهليةServices Indigènes لإفريقيا الشمالية. الأمر هنا لا يتعلق إذن إلا بعرض مختصر وبالتالي غير تام لا محالة، بحيث سيتم إبعاد عدد لا حصر له من فروع الطرقية المتشعبة والإشارة فقط إلى الخطوط العريضة ليس إلا.

إننا لا نعثر في المغرب على أثر لطرقية منظمة إلا بداية من القرن الحادي عشر الميلادي وإلى الوقت الراهن.ومن بين هذه الطرقية شكلت اثنتان منطلق إمبراطوريتين بربريتين عظيمتين المرابطية والموحدية.

كان تأسيس الأولى أي إمبراطورية المرابطين في بداية القرن 5هـ / الحادي عشر الميلادي على يد واجاج بن زلو اللمطي العائد من القيروان إلى سوس حيث أنشأ زاوية تحت إسم دار المرابطين ومعناها المضمر رباط الطائعين لشيخهم. وبعد أن كان مريده عبدالله بن ياسين شيخا ليحيى بن إبراهيم الجدالي وليحيي بن عمر اللمتوني من ملوك صنهاجة ،أسس صحبة خلفهما الأمير أبي بكر بن عمر اللمتوني دولة المرابطين في سنة 1061.

---

* أستاذ باحث بالدار البيضاء

ونشأت الدولة الموحدية في سنة 1121 بزاوية تينمل على يد محمد بن تومـــرت الهرغي، تلميذ الإمام الشهير أبي حامد الغزالي.ومن دروسه كان ابن تومـــرت قد استخلص مذهب التوحيد، والاعتكاف على عبادة وتسبيح الله ، وكلها أمــــور يجب أن تكون هي الغاية الوحيدة لجميـــع أفعـــال النـــاس. وتســـمى مريـــدوه بالموحدين. وللتعرف على المذاهب الأصلية للطرقية يجب الرجوع إلى القـــرن الثالث الهجري (IXم)، وذلك في العهد الذي توغل فيه دين النبي حتَّـــى بـــلاد فارس، فحل الإسلام هناك في بيئة ذات ثقافة عقلية معينة ثم إن صرامة مذهـب التوحيد الإسلامي الذي نزه الله عن العالم وهو مولاه، قد قنع به عـــرب شـبه الجزيرة الجاهلين بما فيه الكفاية، لكن العلماء لم يجـــدوا فيــه ضالتـــهم وهـــم المطلعون من قبل على مذاهب الزهد الهندية ولديهم إلمام بمذهب وحدة الوجـود المستمدة من مذاهب أفلاطون وأرسطو. فبدأ مذهب التوحيد الإسلامي يتحـــول إلى مذهب وحدة الوجود ذي نزعة صوفية وقد أدمج الألوهية في العالم. كمـــا أنه ابتداء من القرن الثالث الهجري كاد الإسلام أن ينزلق في حلولية متعارضـــة معه كدين سماوي مُنَزَّل. كان أتباع هذا المذهب يحملون اسم المتصوفة وتسمى مذهبهم بالصوفية. لقد نوقش بإسهاب أصل هذه الكلمة: فحسب البعـــض أنـــها جاءت من صوف لارتداء أهل التصوف أردية من الصوف ، وحسب البعـــض الآخر أنها اشتقت من الصفاء. ويبدو أنها يمكن أن تأتي ببساطة من صوفيـا أي الحكمة، العلم ، وإن كان الجميع قد صرف النظر عموما عن أصل هذه الكلمـة. فلا يجب إغفال أن مصطلح فلسفة قد أسيء تفسيره من طرف المسلمين الذيـــن كانت الفلسفة بالنسبة لهم علم على طرف نقيض من الدين الســـماوي المُـــنَزَّل ومن العقيدة، ربما فإلى الأصل الفلسفي للتصوف قد يجب إسناد مثابرة فقـــهاء المسلمين من أجل أن يكون للمذاهب الصوفية مصطلح وفق الاشتقاق العربـــي بشكل يطمس مثيله الوثني. في القرن الثالث الهجري انقســـم تلقيـــن روحانيـــة التصوف في الشرق إلى مدرستين، إحداهما لأبي يزيـــد طيفـــور البســـطامي وثانيهما لأبي القاسم الجُنيد، وكلاهما مـــن أصـــل فارســـي.ســـقطت مدرســـة البسطامي بجرأة في النزعة الحلولية، بينما كَيَّفَت مدرســـة الجُنيـــد منظومتـــها الفلسفية مع مذهب التوحيد الإسلامي، بتلقينها حلولية محدودة أطلق عليها وحـدة وجود عددية أي بدل إقرار أن الربوبية والعالم قد امتزجا، أقرت فقط باتصـــال شبه مطلق بين الربوبية ونفوس معينة ذات جوهر متمـــيز، لذلـــك فالحـــالتين الرئيسيتين للنفس بالنسبة للسالكين الأكثر صفاء هما في بادئ الأمـــر "الحـــال"

وهو منزلة عابرة من الاتصال الإلهي، ثم "المقام" الذي يعد أسمى منزلة والنادر جدا في درجات التصوف والذي يكمن في حالة السالك المثابر في الاتصال شبه المطلق.

نشأت كل طرقية المغرب انطلاقا من مذهب الجُنيد، وليس بوسع المرء العثور إلا على أثر غامض بما فيه الكفاية عن البسطامي وذلك في مولاي بوسلهام بالغرب. حسب الاعتقاد الشعبي ، فالشخصية التي يطلق عليها البعض أبا سعيد المصري، والبعض الآخر أحمد بن عبد الله بن إدريس، المعروف بمولاي بوسلهام قد يكون فعلا هو الشيخ الصوفي أبو يزيد البسطامي. لكنها بالتأكيد حكاية بدون سند، فأبي يزيد توفي بالفعل حوالي سنة 264هـ وقبره معروف جدا في بسطام، بالقرب من نيسابور ببلاد فارس، في حين أن الشخصية المعروفة بمولاي بوسلهام توفيت في بداية القرن الرابع الهجري.ومع ذلك استمر اسم طيفور في أحد فروع أولاد المصباح وقبورهم تحيط بقبر مولاي بوسلهام على الممر المائي للمرجة الزرقاء. قد يلاحظ في هذا التطابق في الاسم ، أثر محاولة أحد مريدي البسطامي لنشر معتقدات شيخه بالمغرب. مهما كان ، فهذه المحاولة أخفقت وتمكنت معتقدات الجنيد لوحدها من إشاعة مذاهب التصوف في المغرب، أو على أقل تقدير فإنها الوحيدة التي بالإمكان العثور لها على بقايا وذلك منذ القرن الخامس الهجري وإلى أيامنا هذه.

انقسم تلقين التصوف إلى عدة فترات يمكن تحديدها بالكيفية التالية:

1 ــ من الجُنيد إلى الشاذلي ، من القرن الثالث إلى القرن السابع .

2 ــ من الشاذلي إلى الجزولي ، من القرن السابع إلى القرن العاشر.

3 ــ من الجزولي إلى أيامنا هذه ، من القرن العاشر إلى القرن الرابع عشر.

1 ــ **الفترة الأولى:** من الصعب معرفة بدقة من كان وراء جلب المذاهب الصوفية لأول مرة من الشرق إلى المغرب. سبقت الإشارة إلى أنه ابتداء من القرن الرابع الهجري كانت تلك المذاهب قد دخلت المغرب، ثم من الأكيد أن زاوية المرابطين، التي أسسها وُجاج بن زلو في سوس ما كان لتكون هي الزاوية الوحيدة.إن معتقدات الجنيد في الواقع لم تتبع على الدوام نفس الاتجاه في التبليغ بحيث يوجد مريدون كثيرون أخذوا عن نفس الشيخ ومريد لوحده كان لديه عدة أشياخ.والكيفية التي يجب الاعتماد عليها أكثر للإحاطة بالظرف الذي دخلت فيه إلى المغرب المذاهب الصوفية ما قبل الشاذلي ، هي تقصي أصل أقدم طائفة طرقية عُثر لها على أثر خارج إطار المرابطين والموحدين أنها طريقة الشعيبيين، أنشأها أبو شعيب أيوب بن سعيد الصنهاجي

مولاي بوشعيب بأزمور، في القرن السادس الهجري (12م). وسبق أن وُجِـدت في هذا العهد طريقة الصنهاجيين أو الأمغاريين من بني أمغار في طيط جنوب أزمور. وكان أبو عبدالله أمغار الصنهاجي الملقب بالكبير معاصرا لمولاي بوشعيب، وعرف برئيس الطائفة الصنهاجية بطيط. وعاصر والده أبو جعفر إسحاق أبا ينور الدكالي شيخ مولاي بوشعيب. وسنرى لاحقا أن شيخ الإمام محمد بن سليمان الجزولي ، أبا عبد الله أمغار الصنهاجي كان ينتمي إلى نفس العائلة والطريقة. تلقى مولاي بوشعيب، تعاليم الجنيد، عن أبي ينور عبد الله بن وكريس الدكالي المشترايبي، ومحمد بن ويجلان الدكالي وأبي فضل الله الجوهري وأبي بشر الجوهري وأبي بكر الدينوري وأبي حسين بن محمد النوري وكان هذا الأخير نفسه مريد الجنيد. وكان أبو يعزى يلنور بن ميمون أكبر مريدي مولاي بوشعيب، ولد بهزميرة إيروجان، وتوفي عام 572هـ/1177م بجبل إيروجان بين تادلة وبلاد زيان حيث دفن.مازال ضريحه إلى اليوم يعد مزارا يشد إليه الزائرين بكثرة ويعرف باسم مولاي بوعزة.

2 ــ **الفترة الثانية** : كان من بين مريدي الشيخ أبي يعزى شخصية طبقت شهرتها الأفاق، إنه الشيخ الشهير أبو مدين الغوث، المعروف عند عامة الناس بسيدي بومدين ، وقد دفن بالعباد قرب تلمسان. وكان سيدي بومدين كذلك بالشرق مريدا للشيخ الكبير مولاي عبد القادر الجيلالي، وكان قد تتلمذ في فاس على يد علي بن حرزهم المعروف عامة بحرازم فلقنه مذهب الغزالي أكبر فلاسفة الإسلام، وكان صالح بن حرزهم عم علي تلميذا للغزالي في الشرق. وقد أخذ كل من مولاي عبد القادر والغزالي عن الجُنيد.كان أبو مدين من جهة أخرى شيخ مولاي عبد السلام بن مشيش ودفن هذا الشيخ الكبير في بني عروس، حيث يعد ضريحه محط إجلال بصفة عامة ومحل تقديس تقريبا من طرف قبائل جبالة بصفة خاصة. وكان مولاي عبد السلام شيخ أبي الحسن علي الشاذلي. إن مولاي عبد القادر الجيلالي ، مؤسس المدرسة الصوفية المعروفة بالطريقة القادرية، يمكن اعتباره تجسيدا لمعتقدات الجُنيد في المشرق، وأن الشاذلي صاحب الطريقة الشاذلية يجسد نفس المعتقدات في المغرب.يعد أبو مدين الغوث المزداد بإشبيلية في بداية القرن 12م ، حلقة وصل بين الطريقتين. فهو من الذين جلبوا إلى المغرب الطريقة القادرية، وأضاف إليها مذهب الغزالي وتعاليم مولاي بوعزة الذي استقاها بدوره من مدرسة الجنيد، وذلك قبل كل من مولاي عبد القادر والغزالي. إن المعارف التي لقنها مولاي عبد السلام إلى الشاذلي والتي هي أساس الطريقة الشاذلية مستمدة إذن بأشكالها الثلاثة من مذهب الجنيد. وكان لمولاي عبد السلام أيضا

شيخ آخر هو عبد الرحمن المدني الزيات، الذي تلقى معارفه بدوره من أبي مدين مباشرة أو بواسطة أبي أحمد جعفر الخزاعي الأندلسي.كان من الصعب على الدوام التحقق من سلسلة أشياخ الزيات الآخرين. وترجمة مولاي عبد السلام نفسها غير منجزة بالكامل، تختلط في الغالب بالجانب الغرائبي وبما هو من كرامات في حياة هذه الشخصية. ومع ذلك نعرف بأن مولاي عبد السلام لزم السياحة مدة ست عشرة سنة ، وبالإمكان إذن الافتراض أنه في هذه الفترة قد التقى في المدينة Médine بالشيخ الزيات الذي كان يستقر فيها.

في القرن 7هـ / 13م ، كان تلقين مذاهب الصوفية في المغرب ممثلا إذن في ثلاث مدارس :

1) المدرسة المنبثقة من تعاليم الجنيد قبل وصول معتقدات مولاي عبد القادر.

2) المدرسة التي تستمد من هذه المعتقدات فضلا عن تلك التي جاء بها الغزالي .

3) وأخيرا المدرسة المنبثقة من تعاليم الشاذلي.

سبقت الإشارة إلى أنه لم يكن متيسرا إلى الآن العثور بين الطرقية المنحدرة من المدرسة الأولى إلا على طريقة الشعيبيين والأمغاريين . ومن بين الطرقية المنبثقة عن المدرسة الثانية، نعثر على طريقة الماجريين، ومؤسسها أبو محمد صالح الماجري برباط آسفي، وطريقة الحاحيين، وطريقة الغماتيين أو الهزميريين لصاحبها عبد الرحمن الهزميري ثم طريقة الحنصاليين ومؤسسها أبو سعيد أحنصال.كان أبو محمد صالح وهو اليوم والي آسفي، مريد أبي مدين، وكان هو نفسه شيخ أبا سعيد أحنصال وضريحه موجود بدادس.لم تحتل الطريقة الحنصالية مكانة حقيقة إلا في القرن 18م وسيأتي الحديث عنها إلى جانب الطرقية المنبثقة عن الجزولي.أما طريقة الحاحيين فقد تأسست من طرف يحي بن أبي عمار عبد العزيز بن عبد الله بن يحي الحاحي وهو دفين تيغزة. لقن معتقدات أبي مدين التي تلقاها بالتتابع، عن أبي القاسم البكري وأبي سعيد. ونعثر على نفس هذه الزاوية في القرن 17م مع يحي الحاحي الذي كان معاصرا للسلطان السعدي مولاي زيدان.كما أن طريقة الهزميريين التي أسسها عبد الرحمن بن عبد الكريم بن عبد الواحد بن يحي بن عبد الله الهزميري الدكالي انبثقت كسابقتها عن أبي محمد صالح، وتوفي الهزميري في عام 706هـ/1307م، ثم دفن في فاس داخل باب فتوح بروضة الأنوار.ولنقل إن هذه الطرقية المختلفة كانت تابعة إلى حد ما لطريقة الماجريين لصاحبها الشيخ أبو محمد صالح، الذي شكلت تعاليمه مدرسة

حقيقة، تعلق بها معظم الطرقية في زمنه. امتد صيته إلى مدى بعيد ويمكن أن نذكر من بين مريديه أحد أشياخ التصوف في الريف، هو أبو مروان عبد المالك أوحق الذي عاش بسبتة. فإلى طرقية هذا العهد المنبثقة عن تعاليم أبي مدين، والغزالي وأبي محمد صالح، يجب إضافة الطرقية التي أخذت بمذهب مولاي عبد القادر الجيلالي، أي الزوايا القادرية أو الجيلالية، وطريقة مولاي عبد القادر مازالت موجودة ، في حين اندثرت الطرقية الأخرى أو تحولت على الأقل إلى معتقدات الشاذلي وقد تغير اسمها.

لا نعثر على بقايا طرقية قامت في المغرب على معرفة مباشرة بمعتقدات الشاذلي. فأبي الحسن الشاذلي مريد مولاي عبد السلام لم يستقر في الواقع بالمغرب. ولا يبدو أنه كان له فيه مريدون. فقد رحل إلى الشرق وشيخه على قيد الحياة، وتوفي في صحراء عيداب على البحر الأحمر وهو في طريقه إلى الحج في عام 656هـ /1258م. ويوجد قبره بحميترا قرب جدة.

يظهر أن معتقدات الشاذلي قد عادت للمغرب إلى الزاوية الركراكية بواد شيشاوة على يد أبي زيد أو إلياس الركراكي الذي قضى عشرين عاما في الحرمين. ومن هناك انتقلت إليه الطريقة الشاذلية بواسطة سلسلة النقل التالية : أبو الفضل الهندي أنس البداوي، أحمد القرفي، أبو عبد الله المغربي، الشاذلي. وكان للركراكي مريد هو أبو سعيد عثمان الحرتناني صاحب زاوية حرتنانة وكانت قرب كوز، على الضفة اليمنى لواد تانسيفت: وكان للحرتناني بدوره مريد هو أبو عبد الله أمغار الصغير من طيط شيخ سيدي محمد بن سليمان الجزولي.

3 ــ **الفترة الثالثة:** هكذا نصل إلى الفترة الثالثة من تلقين المذاهب الصوفية والتي يمكن تسميتها بالفترة الجزولية. وعن الطريقة الجزولية قال أبو الحسن علي بن محمد صالح الأندلسي:"يوجد في الدنيا مذهبان فوق كل المذاهب: مذهب مولاي عبد القادر الجيلالي ومذهب سيدي أبي الحسن الشاذلي، إن الشاذلية هي الطريقة التي يلقنها شيخنا الجليل سيدي محمد بن سليمان الجزولي". وسنتطرق من بعد إلى البواعث السياسية والدينية التي كانت وراء جعل الطريقة الشاذلية من خلال الجزولي تصبح هي الطريقة الجزولية.

ولد الإمام أبو عبد الله محمد بن عبدالرحمن بن أبي بكر بن سليمان المدعو عادة محمد بن سليمان السملالي الجزولي بسوس الأقصى في سملالة من فروع قبيلة جزولة، في بداية القرن التاسع الهجري ، وتوفي في تنكورت بسوس حوالي سنة 870هـ/1465م، ودفن في بدء الأمر بتاسروت ثم في أفوغال. أخيرا وبعد ستين عاما من وفاته وبأمر من أبي العباس أحمد الأعرج

أول سلطان سعدي نقل رفاته إلى مراكش حيث وارى الثرى برياض العروس. ولهذا التقدير الجليل الذي خص به السعديون الجزولي تفسيرين: فمن جهة يعود الفضل في توليتهم إلى الزوايا المنحدرة من هذا الشيخ، ومن جهة أخرى كانت أهمية ضريح الجزولي كما اعتقد بلا شك سلاطين الأسرة الحاكمة الجديدة تكمن في أن تحظى عاصمة ملكهم بمزار كان مركز إجماع حقيقي. إننا نعرف في أية ظروف وصل فيها السعديون إلى سدة الحكم، فابتداء من القرن الخامس عشر، كان البرتغاليون قد بدأوا توغلهم في المغرب، فاستولوا بالتتابع على سبتة، 1415 والقصر الصغير،1462، وأنفا 1468، وأصيلة وطنجة 1471، والجديدة 1506، وأسفي ،1507، وأزمور في عام 1513 وطيط، والمدينة ومدن أخرى هي اليوم أنقاض.ثم مارس البرتغاليون سلطتهم ليس على المدن التي احتلوها فحسب، بل على القبائل التي قد صار عدد كبير منها تابعا لهم ، من بينها قبائل عبدة، ودكالة، والغربية، وحاحا التي كانت تؤدي سنويا للبرتغال مئات الألف فنيكة (*)Fanègues من الحبوب ، والثيران ، والغنم ، والزيتون إلخ. وتدفع قبائل عبدة لوحدها كل عام ألف حمل جمل، من الشعير والحنطة بكميات هائلة، وستة من الجياد الفارهة وأربعة صقور. وكانت في خدمة البرتغاليين قوات متعددة من الأهالي ، كان على رأسها القائد المعروف يحيى بن تاعفوفت. باختصار توغل الاحتلال البرتغالي أكثر فأكثر داخل البلاد وبدا أنه تنظم بشكل قاطع فنجم عنه غليان شديد ، أطره وأجج لهيبه أتباع الجزولي الذين قيل أنهم كانوا أزيد من 12000، جابوا القبائل داعين إلى معتقدات شيخهم وإلى الجهاد في الوقت نفسه.

كان الملك عمانويل Emmanuel، في عام 1508 قد ابتاع من نبيل برتغالي هو خوان لوبيز دي سكيرا Juan Lopez de Sequiera ، دارا كان هذا الأخير قد شيدها برأس اغير (أكادير) للتعاطي للصيد.فأقام فيها حصن سنتاكروز Santa-Cruz ، الذي أتاح له السيطرة على الساحل الجنوبي وفرض الإتاوة على المناطق المجاورة.

بدأت أقاليم سوس ودرعة تهتز هيجانا وتجمع التبرعات المالية في سبيل الجهاد،ثم لجأت إلى رجل من الصلحاء كان مقيما في أقا وهو الشيخ محمد بن مبارك الذي أشار عليهم ببيعة الشريف أبي عبد الله محمد السعدي أميرا عليهم وكان مقيما بزاويته في تكمادارت ببلاد درعة. لقد ادعت هذه الأسرة أن أصلها من ينبوع، وأنها من ذرية محمد النفس الزكية أخ مولاي إدريس. فصار أبو عبد الله على رأس المجاهدين بسوس، ولقب بـ"القائم بأمر الله" أما ابنه الأكبر أحمد الأعرج فهو الذي أسس الدولة السعدية.لقد حظيت هذه

الشخصية إذن، في الظروف الخطيرة التي وجد فيها المغرب نفسه أمام الغـزو البرتغالي ، بتأثير مزدوج بفضل صلاحها وأرومتها، فحسب السكان شكل وجود سليل النبي على رأسهم ضمانة للانتصار ودرء الخطر عن الإسلام المهدد. قال الجزولي نفسه:"ليس العزيز من تعزز بالقبيلة وحب الجاه إنما العزيز من تعزز بالشرف والنسب وأنا شريف في النسب جدي رسول الله [ص] وأنا أقرب إليه من كل ما خلق الله ، إلخ".فإلى هذا العهد وجد في المغرب ما يمكن تسميته بنزعة الشرفاء Le Chérifisme بمعنى ليس إحاطة المنحدرين من ذرية النبي [ص] بالإجلال وحسب ، بل رغبة التعرف على هذا الأصل الشريف لدى كل شخص متميز قليلا عن المألوف. وهكذا فإن كل مؤسسي الزوايا والطرقية اعتبروا كشرفاء وذلك ابتداء من القرن 10هـ/XVIم وأن تآليف المناقب التي كتبت بعد هذا العهد ، منحت هذه الخاصية مع شجرة أنساب تامة ، إلى أسر لم تكن محسوبة على الشرفاء في تآليف سابقة على هذا العهد.إذا أفادت تعاليم الجزولي ومريديه الكثيرين من حركة التجديد الدينية من جراء الغزو البرتغالي وكسبت الطريقة الجزولية صيتا ونفوذا إلى حد أنها جعلت الطريقة الشاذلية التي منها انبثقت تقع في طي النسيان وحلت محلها تماما في المغرب.حينئذ تأسست كثرة لا تحصى من الزوايا وعدد كبير من الطرقية. فسعى السلاطين السعديون إلى التخلص فورا من هؤلاء الذين ساعدوهم وبالتالي ضايقوهم في ممارسة سلطتهم. وهكذا خربت كثير من الزوايا وتفرقت الطرقية شدر مذر أو تم وأدها قبل أن ترى النور، لكن عددا وافيا منها استمر في الوجود. ومن جهة ثانية شكلت الزوايا والطرقية قوة بكل تأكيد، ثم إنه في بلاد كان فيها نفوذ السلطة المركزية غالبا غير كاف، كان من الضروري كسب ود هذه القوة التي عجزوا عن تحطيمها وهكذا فإن السلطان عبد الله الغالب بالله كان راضيا على إمكانية استغلال الزاوية الجزولية لأولاد البقال الحرايق بقبيلة غزاوة ضد أتراك باديس بالريف. وكان لهذه العائلة شأن عظيم تحت حكم السعديين. ثم فيما بعد، عندما استنجد ابن السلطان الغالب بالله، محمد المسلوخ بالبرتغاليين ضد عميه عبد المالك وأحمد اللذان نازعاه العرش، والتقى الجيشان يوم 4 غشت 1578 ، على ضفة واد المخازن شمال القصر، فإن مساهمة الجبليين المتكتلين وراء قيادة محمد بن علي بريسون أحد أشياخ الجزولية هي التي ساعدت بحظ وافر على هزيمة البرتغاليين. كان محمد بن علي مريد الشيخ الشهير عبد الله بن حساين الأمغاري صاحب تامصلوحت قرب مراكش، وتلقى هذا الأخير معتقدات الجزولي عن طريق عبد الله الغزواني الذي أخذها عن عبد العزيز التباع مريد الجزولي. إن محمد

بن علي هذا ، هو واحد من الأوائل الذين لقنوا مذهب الجزولي بجبل العلم في قبيلة بني عروس حيث يوجد ضريح الشيخ الصوفي الكبير مولاي عبد السلام وكما سبقت الإشارة فإنه ليس سوى مذهب الشاذلي تلميذ مولاي عبد السلام. فعادت إذن معتقدات أبي مدين المأخوذة عن مولاي عبد القادر والغزالي إلى جبل العلم حيث كان مولاي عبد السلام يلقنها ، لقد عادت إليه ومعها مجد الانتصار كله. ولمكافأة محمد بن علي بريسون وأصحابه ، فإن السلطان أحمد المنصور ــ الذي نودي به ملكا في ميدان معركة وادي المخازن ،حيث توفي أخوه عبد المالك الذي اشتد به المرض ــ منح مزار مولاي عبد السلام صفة حرم مماثل للحرم المكي، ولجميع أفراد عائلة الشيخ امتيازات وإعفاءات جبائية ، باختصار كون المنصور هذه الطائفة من شرفاء الجبل ، التي تعيش منذ هذا العهد في المدينة الصغيرة تازروت وفي مجموع قبيلة بني عروس ، وكأنها داخل زاوية ما شاسعة الأطراف وضعت في مقام متعالي وخارج عن ما يجري في العالم .

إن النزعة الصوفية نفسها [تمغربت] تقريبا، فحذاء مولاي عبد القادر الشيخ الصوفي الكبير للشرق ولت النزعة القومية المغربية شيخها الخاص، مولاي عبد السلام بن مشيش، الشيخ الصوفي الكبير للغرب. قد يكون من الصعب ذكر جميع الزوايا التي انبثقت عن تعاليم الجزولي المتوفى حوالي علم 1465م ، وكذلك تلك التي تأسست على يد مريديه الكثيرين ومن طرف سلسلة متوالية من المريدين الذين عمموا تعاليمه منذ أكثر من خمسمائة سنة. ومن ضمن تلك الزوايا الرئيسية يمكن ذكر زاوية سيدي احماد أوموسى ، بتازروالت في سوس ، وهذه الزاوية الموجودة بإيليغ، قرب تزنيت ، اكتسبت أبعادا هامة في فترة وجيزة، ففي الخرائط القديمة نعثر على المنطقة التي كانت تابعة لها معينة تحت اسم مملكة سيدي هشام، ثم الزاوية الناصرية بتامكروت في وادي درعة، وزاوية أولاد أمغار بتمصلوحت قرب مراكش . وتأسست من طرف سيدي عبد الله بن حساين ، صاحب 366 علما ، وزاوية سيدي رحال، التي ينتسب إليها وإلى الآن العرافون والعرافات، وزاوية أبي الجعد في تادلة أسسها سيدي محمد الشرقي ، والي الفرسان ، وفي الشاوية سيدي سعيد أمعاشو وزاوية عيساوة في مكناس، وفي زرهون زاوية حمادشة، وفي الغرب زوايا أولاد المصباح وسيدي عبد الرحمن المجذوب ، وزوايا الفاسيين بالقصر لسيدي علي بن أحمد من صرصار، وزاوية تاسروت أو تازروت في بني عروس، ثم زوايا أولاد البقال الكثيرة العدد وأهمها الزاويتين الرئيسيتين : زاوية الحرايق بغزاوة ، وزاوية مولاي بوشتا عند فشتالة بين سبو وورغة.

والزاوية الوزانية عند مصمودة، وزاوية درقاوة عند بني زروال إلخ ...إلـــخ.
كانت إحدى هذه الزوايا على وشك تأسيس دولة بربرية جديدة بيـــن الدولتيـــن الشريفتين : السعديين والفلاليين ، إنها الزاوية الدلائية التي شيدها أبـــو بكـــر المجاطي الصنهاجي حوالي نهاية القرن السادس عشر XVم، وكانت دلاء فـــي أيت إسحاق بين منابع ملوية وواد العبيد. وفي فاس نودي بمحمد الحاج الدلائـي حفيد أبي بكر ملكا، فحكم فعلا على قسم كبير من وسط وشمال المغرب، إلـــى سلا من 1645 إلى 1668، آنذاك استولى مولاي الرشيد على الزاوية فدمرهــــا. وهكذا بعد الدور المجيد الذي لعبته في تاريخ المغرب، تسقط اليوم فـــي جـب النسيان.

إن كل الزوايا لم تساهم في خلـــق طرقيـــة، وأن الكثـــير منـــها تعـــرض للزوال،واستمر عدد منها كمراكز دينية محلية نُذرت لتَبْجيل مؤسـس الزاويـــة وذريته، في حين توقَّفَ عدد قليل من تلك الزوايا في خلق بعض الطرقية. وهذه الطرقية نفسها لم تصمد بأسرها وأن عدد تلك التي أخفقت لكبير. أما الطرقيـــة الأكثر شهرة حسب الترتيب الزمني والتي مازالت قائمة وتشتغل أيضا فســيأتي ذكرها لاحقا. لقد صدرت جميعها عن الجزولي ما عدا جيلالة التابعين لشـيخهم مولاي عبد القادر الجيلالي، والتيجانيين الذين سنتطرق لأصولهم من بعد.

تعد الطريقة القادرية الأقدم بين الطرقية التي توجد إلى الآن في المغـرب، حيث يعود تـاريخها إلى الـقرن السادس الهجري (القـرن 12م) فمـا زلنـا نسمع في كل مكان متسولين يشحذون باسم مولاي عبد القادر. ونجد له زوايـــا مبثوثة في كل مدن المغرب، لكن العدد الأكبر من أتباع طريقته غير منضويـن تحت اسم القادرية بل تحت اسم جيلالة وهم ينتشرون بالمغرب في كل حـــدب وصوب، ما عدا عند جبالة، ولكل قرية مقام لمولاي عبدالقادر تأتي إلى قبتـــه الصغيرة النساء يعلقن "الشوالق"(**) ويحرقن الشموع والبخور، ويتقربن إليـه أحيانا بالنُّـشرة(**) فإلى مولاي عبد القادر تأتي النسوة للبوح له بأســرارهن الحميمية، وللتظلم من أزواجهن، وكيد نساء، ويبحن له ببؤسهن، وطموحاتـــهن وضغائنهن وأحيانا بمحباتهن. إن مبادئ مولاي عبـد القـادر الصوفيـــة قـد اضمحلت تماما عند جيلالة لاسيما في البوادي ، وحلت محلـــها عبـادة قـوى غريبة وخفية ، حيث يتضرع جيلالة بواسطة شـيخ بغـداد الكبـير بـالجن والجنيات : سيدي ميمون ، سيدي موسى ، للاميرة، سيدي حمـــو ، للاجميليـــة إلخ.ويحدث في الغالب خلط على ما يبدو بين ممارسـات كـل مـن جيلالـــة وكناوة، وهي طريقة زنوج غينيا التي وضعت نفسها أيضا تحت رعاية مـولاي عبد القادر ومع ذلك فإنها ليست بمسلمة في شيء.وســبقت الإشـارة إلـى أن

معتقدات عبد القادر الجيلالي قد نقلها إلى المغرب مريده بومدين الغوث وشكلت إلى جانب معتقدات الغزالي الأساس الذي قام عليه مذهب الشاذلية. ثم يبدو أن الاستقطاب إلى الطريقة القادرية يزداد منذ مدة، في حين لا يظهر تأثيرها السياسي إلا من خلال ما هو قائم من نشاط طريقة ماء العينين الشنكيطي، لاسيما بسوس في اتجاه مدينة تزنيت وذلك مع نجله مربيه ربه أخ الهيبة. ويمكن العثور كذلك على أثر لمثل هذا النشاط السياسي في شمال البلاد من طرف الشيخ محمد البدْوي أو البدَوي، وهو مقدم قديم لسيدي أحمد شمس، الذي كان خليفة ماء العينين على فاس. وسكن الشيخ محمد البدوي بجبل صرصار، ويقطن حاليا بجبل دال في الغرب، وكان أتباعه المخلصين قد شرعوا في تشييد زاوية له بالقصر الكبير، لكن أشغال البناء توقفت منذ حوالي عامين. وعُرف عن محمد الفاضل والد ماء العينين أنه كان ينتمي إلى إحدى فروع الطريقة القادرية وهي الطريقة البكائية بموريطانيا والسينغال والسودان. وتعود أصولها إلى عبد الرحمن الطالبي والي مدينة الجزائر.

اضمحلت الطرقية الشاذلية التي كانت قبل الجزولي، وفي مطلع القرن 16 ظهرت الطريقة العيساوية وهي بلا شك الأكثر شهرة وتبدو أقدم الطرقية التابعة لمحمد بن سليمان الجزولي. أسسها حوالي عام 1500 سيدي محمد بن عيسى المختاري، وكان مريد سيدي عبد العزيز التباع الذي كان بدوره مريد الجزولي، ومن المعلوم أنه دفن بمكناس.

* **الطريقة الناصرية :**

أسسها في بداية القرن 17 بتامكروت مْحمد بن ناصر الدرعي الذي كان مريد عبد الله بن حساين مريد عبد الله الغزواني وهذا الأخير نفسه مريد عبد العزيز التباع.

* **الطريقة الحنصالية :**

رغم أن وجودها قد انتهى تماما في شمال المغرب، وفي مجموع بلاد المخزن أيضا، فمن المفيد الوقوف عندها قليلا نظرا لنفوذها الذي استأنفته في المناطق البربرية المتمردة. كان سيدي سعيد ، أكبر أشياخ الحنصاليين، مريد أبا محمد صالح، ولي أسفي وعاش في القرن 13م ، وقبره يوجد في دادس. ولا يبدو أنه أسس طريقة.كان أحد ذريته واسمه سعيد أيضا ، مريد سيدي محمد بن ناصر بتامكروت ، ثم أسس في أيت مطريف زاوية حيث وفاه الأجل سنة 1702. فخلفه ابنه يوسف، الذي رفع من شأن الزاوية وأنشأ الطريقة الحنصالية التي كان لها عدد كبير من الأتباع والزوايا في كافة المدن. فأزعجت بنفوذها المولى إسماعيل وإن كنا نجهل بالضبط مجريات الأحداث،

فإن زوايا الحنصاليين كلها وطريقتهم أيضا قد زالت ومعها يوسف أحنصال نفسه. وتأسست في القرن 18م ببلاد الجزائر زاوية حنصالية على يد سدون الفرجوي وذلك بشطابة قرب قسنطينة. وهذه الزاوية ما تزال قائمة. وتضم حوالي 5000 من الأتباع بولاية قسنطينة والطريقة الحنصالية، التي احتلت مكانة مرضية ليتأتى لها حمل هذه الصفة، مرتبطة بناصرية تامكروت عن طريق عدة أشياخ. وللزاوية الدلائية نشأة مماثلة ، وكذلك الشأن بالنسبة لزاوية بربرية أخرى يظهر أنها أخذت تستعيد حيويتها من جديد منذ بضعة أعوام إنها زاوية عربلة تأسست في بداية القرن 18م من طرف أبي بكر أمهاوش في قبيلة أيت امهاوش إحدى فروع أيت شخمان. وانضمت زاويتا أحنصال وأمهاوش في الوقت الحاضر إلى الدرقاويين .

*** طريقة احمادشة :**

تأسست هذه الطريقة في نهاية القرن 17 على يد سيدي علي بن حمدوش الذي تلقى تعاليم الجزولي عن طريق أشياخ زاوية أبي الجعد الشرقاويين بمنطقة تادلة.توجد زوايا احمادشة في كافة المدن ، وتقع الزاوية المركزية حول ضريح سيدي علي بجبل زرهون قبالة مكناس.يُحكى أن عادة حمادشة في ضرب رؤوسهم قد نشأت عن الكيفية التي عبر بها أحد مريدي سيدي علي ، وهو سيدي أحمد الدغوغي عن حزنه الشديد عند وفاة شيخه، وذلك بضرب رأسه بالحجارة.

*** الطريقة التهامية:**

أي الطريقة الوزانية، التي يطلق عليها في الجزائر الطريقة الطيبية. فالجميع يعرف شرفاء وزان والمكانة الهامة لطريقتهم.لقد نشأت في القرون 17م على يد مولاي عبد الله الشريف، الذي ولد بتاسروت في بني عروس سنة 1005هـ(1596م).ويلزم أكثر من كتاب مجلد لتسجيل كل تاريخ دار وزان الذي كانت أحداثه متداخلة في الغالب مع أحداث تاريخ الأسرة الحالية الحاكمة. فلابد إذن من الاقتصار على عرض تاريخي مقتضب للطريقة وحدها.إن مولاي عبد الله الشريف، الذي كان واحدا من أكابر أشياخ مذهب التصوف المغربي، بل أكبرهم منذ الجزولي، كان مريد سيدي علي بن أحمد من صرصار وسيدي عيسى بن الحسن المصباحي وتتلمذ على والده ، الذي كان نفسه مريد مصباحي آخر، هو محمد بوعسرية الذي كان بدوره مريد عبد العزيز التباع أول مريدي الجزولي.وكان سيدي علي بن أحمد من صرصار كذلك مريدا لسيدي يوسف الفاسي. فزاوية وزان قامت إذن على مبادئ الجزولي وتلقاها سيدي علي بن أحمد، شيخ مولاي عبد الله الشريف، عن

أولاد المصباح وعن الفاسيين. وأصل أولاد المصباح من الشاوية، قدموا العديد من أشياخ الطريقة الجزولية فضلا عن المجاهدين وظل عدد كبير منهم في الغرب وعند الخلط حيث يملكون زاوية في كلة جنوب العرائش وفي عين تيسوات بالقرب من ضريح مولاي بوسلهام.ولأولاد الفاسي أو الفاسيين بمدينة فاس زاوية ذات شأن كبير حول ضريح سيدي عبد القادر الفاسي.وأصل الأسرة التي تحمل لقب الفاسيين من الجزيرة العربية، أقامت في الأندلس وكانت تحمل اسم بني الجد.قدم أحد أفراد الأسرة وهو عبد الرحمن من مالقا إلى فاس حوالي سنة1575 . وأقام ابنه أبو الحجاج يوسف بالقصر، وكان يلقب بالفاسي لأنه جاء من فاس. أسس في القصر زاوية جزولية ما تزال موجودة. ثم إن حفيده أبا المحاسن هو الذي كان أستاذ سيدي علي بن أحمد من صرصار. ظلت تقاليد العلم والنبوغ مستمرة إلى اليوم داخل أسرة الفاسيين التي تعد واحدة من أكثر بيوتات فاس تميزا.بالإضافة إلى أصولها الشريفة التي تجعلها منحدرة رأسا من مولاي إدريس، يمكن لدار وزان أن تفخر أيضا بمناهلها العلمية والدينية التي منها انبثقت طريقتها.وفي شتنبر سنة 1678 توفي مولاي عبد الله الشريف. وكان ابنه سيدي محمد مقصرا في الحديث عنه، وفاه الأجل في سنة 1708. ثم إن ابنيه مولاي التهامي ومولاي الطيب هما اللذان عملا على رقي الزاوية والطريقة.وما انفك نفوذها هذا يزداد خلفا عن سلف، مولاي أحمد بن الطيب، وسيدي علي بن أحمد، وسيدي الحاج العربي، بيد أن سيدي الحاج عبد السلام هو الذي جعل دار وزان تحظى بكل هيبتها. وتوفي في سنة1892 . ويحافظ أبناؤه وحفدته على خدمة فرنسا بإخلاص وقد حذوا حذوه.

توجد الزوايا الوزانية في كل مدن المغرب، كما يوجد عدد كبير منها في الجزائر وتونس. وأن عدد المنضمين إلى الطريقة الوزانية ضخم بحيث يفوق أكثر من 20.000 من الأتباع في الجزائر. إنها إحدى أهم الطرقية في العالم الإسلامي.

*** الطريقة التيجانية :**

تأسست هذه الطريقة التي لا تنتسب إلى المغرب ، في سنة 1781 من طرف أحمد التيجاني بعين المهدي جنوب جبل عمور، في الجنوب الجزائري حيث سبق أن كان لأسلافه زاوية هناك. اضطهد الأتراك سيدي أحمد التيجاني فلجأ إلى فاس سنة 1806 وتوفي بها سنة 1815، ويعد ضريحه في فاس موضع إجلال تام. في حين أن مركز الطريقة التيجانية هو في الجزائر باستمرار حيث توجد إمرة الزاويتين الكبيرتين: زاوية عين المهدي وزاوية تماسين، وبعد أن

حاول خصمنا اللدود في الجزائر الحاج عبد القادر، بـــدون طـــائل اســـتقطاب التيجانيين إلى صفه ، قام بمحاصرة عين المهدي واستولى عليها. فنجمت عـــن ذلك بوادر انضمام التيجانيين إلى جانب قضيتنا التي لم تخب إلى اليوم.ويبلـــغ عدد التيجانيين في الجزائر حوالي 25 000 من الأتباع ولهم في المغرب ثـلاث زوايا بفاس وزوايا أخرى بكل المدن بل وفي البوادي نفسها.والطريقة التيجانيـة في المغرب أرستقراطية بما فيه الكفاية، لاسيما أنها تضم شخصيات مخزنيـــة وأدباء وتجار. ولا ترتبط هذه الطريقة بشكل مباشر بالجزولية. فسيدي أحمـــد التيجاني تلقى معارفه عن عدد كبير من أشياخ طرقية مختلفة ، فـــي المشـــرق والمغرب فاستنبط منها بنفسه قواعد ومبادئ طريقته.

*** الطريقة الدرقاوية :**

لقد ابتعدت معظم الطرقية مع مرور الزمن عن المبادئ الصرفة لمذهـــب التصوف. وكان الشريف مولاي العربي ، الملقب بالدرقاوي نسبة إلـــى أحـــد أسلافه، يوسف أبو درقة، أي الرجل صاحب الترس، يتوخـــى الرجـــوع إلـــى القواعد الأصلية فأسس الطريقة الدرقاوية. ولد مولاي العربي في بـــو بريـــح حوالي سنة1760 ، وتوفي بها في عام 1823. ظهرت الزاوية المركزية الأولـــى حول قبره. ويعم إشعاعها مجموع شمال المغرب. ثم تأسست زاوية درقاويـــة أخرى كبيرة منبثقة عن الأولى في النصف الثاني من القرن 19 فـــي مدغـــرة شمال تافيلالت، من طرف الشريف سيدي محمد العربي المدغري المتوفى فـــي سنة 1892. وتمارس هذه الزاوية نفوذها خصوصا في الجهة الوسطى للمغـــرب وفي تافيلالت. وظهرت منذ حوالي عشرين عاما في طنجة زاويـــة درقاويـــة جديدة ازدادت اهميتها أكثر وهي تسعى لتصبـــح قـــاعدة مركزيـــة لطريقـــة جديدة.تأسست هذه الزاوية من طرف سي محمد بلحاج الصديق الغماري، كـــان جده، الحاج أحمد بن عبد المومن وأصله من بيدر بقبيلة مسيردة دائرة مغنيـــة، مريد مولاي العربي الدرقاوي. جاء ليستقر بالمغرب حوالي 1807 ، حين تمـــرد عبد القادر بن الشريف ضد أتراك وهران فحل بغمارة بصفتـــه مقـــدم زاويـــة درقاوية بتازكان وهي من تأسيس مولاي العربي. وشيد سي محمـــد الحـــراق مريد آخر لمولاي العربي، زاوية درقاوية بتطوان وأسس أحد مريديه هو ســـي أحمد بن عجيبة زاويتين واحدة في زميش بأنجرة والأخرى بجبل حبيب. لقـــد كان نفوذ الدرقاويين الموزع بين عدة زوايا جد مهم إذن في مجمـــوع أقصـــى شمال غرب المغرب.فمنذ إقامة الحماية ، وطنجة توجد في وضع خاص أبقاهـــا قليلا خارج أي نفوذ قوي، وذلك في انتظار إيجاد نظام أساسي يقتضي تســـيير شؤونها، فهي بالتالي مكان ملائم لخلق مركز سياسي ـــ دينـــي قـــادر علـــى

التحرك بحرية نسبية وبث إشعاع ذي منفعة لاشك فيها شاء سي محمد الغماري أن يستفيد من هذا الوضع الاستثنائي فأتى إلى مدينة طنجة حيث أنشأ زاوية سرعان ما احتضنت كل من زاويتي الحراق وابن عجيبة: إنه في الواقع مستقل عن زاوية بوبريح المركزية وقد يكون على الأصح متفقا مع الزوايا الدرقاوية كارهة الأجانب والتي تنظم المقاومة في المناطق المتمردة.قد يكون من الصعب الحديث عن الاتصالات السياسية لزاوية طنجة الدرقاوية ، لكنها موجودة بالتأكيد، وقد ينتاب المرء انطباع بأن الذين يفكرون في استغلال هذه الزاوية لمصلحة سياستهم أنهم بالأحرى أدوات غير واعية لمنظمة حقيقية هي الجامعة الإسلامية Panislamique التي تتستر تحت غطاء ما قد يسمى بالجامعة الدرقاوية. باختصار ربما تعد الطريقة الدرقاوية كآخر طريقة تعج بالحيوية والمقاومة الملية، حيث تشكل تعاليم الأشياخ المتصوفة وسيلة لاسيما لحشد جميع عناصر المقاومة ضد التوغل الأجنبي. وقادة هذا التنظيم على الأرجح لا يوهمون أنفسهم بإمكانية نجاح جهودهم، لكنهم يحيون بالأمل المشوب بالقلق ويعملون على زرعه في النفوس ولهم كل المصلحة في استمراريته.والدرقاويون كثيرون، ليس في المغرب فحسب ، بل في كل من الجزائر وتونس، حيث أن عددهم في تزايد على ما يظهر، ويعرفون في ليبيا تحت اسم المدنية نسبة إلى المؤسس محمد بن حمزة ظافر المدني الذي نقل إليها طريقة محمد العربي الدرقاوي حوالي 1820 ولهم صلة أيضا بزاوية البدويين الكبرى التي تحتضن ضريح سيدي أحمد البدوي بطانطا في مصر، وربما هم على صلة بسنوسي الجغبوب، ولا يخفى الدور الكبير الذي قامت به الطريقة المدنية مع محمد ظافر المدني في إطار الجامعة الإسلامية، وذلك في عهد عبدالحميد الذي بعث إلى مولاي الحسن السفير إبراهيم السنوسي الذي كان أخوه عبد الله مربيا سابقا لمولاي عبد العزيز ويقطن بطنجة في الوقت الحاضر. وللدرقاويين أيضا زوايا بمكة والمدينة.كان شيخ محمد العربي الدرقاوي هو الشريف العمراني علي بن عبد الرحمن الجمل وقبره يوجد بحي الرميلة ، قرب قنطرة بين المدن في فاس.كان الجمل مريد مولاي الطيب الوزاني حوالي 1740 ومريد شيخ الزاوية المخفية بفاس العربي بن أحمد بن عبد الله الأندلسي. وترتبط زاوية وزان والزاوية المخفية بالجزولي عن طريق أولاد مصباح وعبد الرحمن المجذوب والفاسيين.

*** الطريقة الكتانية:**

تأسست زاوية الكتانيين في فاس على يد سيدي محمد بن الكبير الكتاني حوالي 1850. وأنشأ حفيده وسميه الطريقة الكتانية حوالي 1890. جزء من هذه

الطريقة منبثق من معتقدات الدرقاويين وآخر من معتقدات مؤسسها الذي كـــان مجددا لا يخشى لومة لائم، اعتقل بأمر من الوزير الصدر باحماد وبعـــد وفـــاة هذا الأخير تم الإفراج عنه فعلا شأن طريقته نظـــرا لمـــا تعـــرض لـــه مـــن اضطهاد، وازداد توسعها بشكل كبير في نهاية عهد مولاي عبد العزيز، لكـــن بعد تولية مولاي عبد الحفيظ في فاس بقليل ، صمم على تصفيتها ولقي ســـيدي محمد بن الكبير حتفه تحت التعذيب . ثم أغلقت كل الزوايا التابعـــة لطريقتـــه التي اضمحلت إلى أن بدأت تنتظم من جديد وأعيد فتح الكثير من هذه الزوايا.

يمكن لهذا العرض غير الكامل تماما، إعطاء مع ذلك فكرة عن أهمية الطرقيـــة المسلمة التي تلف ليس المغرب فقط بل مجموع العالم الإسلامي،كعقـــد شـــبكة عظيمة ، إنها شبكة حية تقريبا، حيث العقد الجديدة تسد مسد تلك التي تلاشـــت ثم أنها تشكل منذ قرون صلة وصل مستترة في الغالب تربط فيما بينها مختلـــف فصائل الإسلام رغم تشردمها الظاهري.ونستغرب عند إعادة تأليف سيرة كـــل هؤلاء الأشياخ من كونهم كانوا يتجولون بسهولة ويترددون بكثرة في ســـياحتهم على المشرق. منذ القرن 4هـــ (القرن10م)، أي خلال ألف عام، كـــان أهـــل العرفان ببلاد المغرب الكبيرMaghreb يتوجهون إلى مكة والمدينة ، ودمشـــق، وبغداد ليعودوا منها وفي جعبتهم الجواب عن هذا السؤال الذي كان الإسلام قـــد زرعه في نفوسهم:"ماهي صلات الخالق والمخلـــوق الكاملـــة، وأيـــة وشـــائج تربطهما؟" كانوا يذهبون بحثا عن "الحقيقة" ويقيمون طويلا في مختلف المراكز التعليمية ثم يعودون إلى بلادهم لنشر ما أخذوه من علم. وكثيرا ما كـــان لـــهذا العلم أن يشفي غـــليلهم بالقدر الذي كانت فيه معارفهم تتســـع أكـــثر فيشـــدون عصا الترحال من جديد.

وحول هذا الموضوع يمكن تسجيل التناقض المتميز لدى بربر المغرب الكبـــير بين وطنية الجماهير السياسية التي تصل إلى حد المحافظة على الخصوصيـــة القبلية وبين اتجاه الأشخاص المتعلمين نحو الشرق ليستمدوا منه شـــعارهم ذو المرجعية الدينية، وفي نهاية المطاف خلق هذا الاتجـــاه نوعـــا مـــن الجامعـــة الإسلامية ذات نزعة روحية والتي قد استغلت على الأرجح من أجـــل إنشـــاء الجامعة الإسلامية ببعدها السياسي. وكانت النزعة الوطنيـــة للمغـــرب الكبـــير نفسها قد استغلت منذ القرن الثاني الهجري من أجل تحقيق استقلال ديني فعلي فصالح بن طريف البرغواطي ــ أحد البربر ، اعتنق أبوه الإسلام، وصمم هـــو على ان يستغل لصالحه مبادئ النبوة والرسالة ، فـــأعلن نفســـه نبـــي الـــبربر محاكاة للنبي محمد بالنسبة للعرب، وحوالي سنة 125هـــ 743 م [افترى] قرآنـــا جديدا قام بنشره وأسس فيما يسمى اليوم بتامسنا إمبراطورية برغواطة التي لـــم

يتم تدميرها إلا في عهد الموحدين خلال القرن 6هـ/12م بعد أن عاشت زهاء أربعة مائة عام. فكان لابد من قدوم مولاي إدريس في سنة 172هـ/789م للحيلولة دون انتشار هرطقة البرغواطيين في مجموع المغرب وفسح المجال أمام النزعة الوطنية البربرية لإرضاء رغبتها الملحة في الاستقلال مع بقائها مسلمة في آن واحد، وذلك بفضل وجود أحد المنحدرين من سلالة النبي والذي أمم الإسلام.وكان مذهب التصوف فيما بعد وراء انطلاق دولتين بربريتين، فانتصرت النزعة الوطنية السياسية من جديد، ثم انتشرت الصوفية القادمة من المشرق بالتدريج مما أدى إلى ظهور طرقية محلية استجابة لمقتضيات المصلحة الخاصة للقبائل، غير أنه كانت لهذه الطرقية من جهة أخرى روابط فيما بينها تعود لأصل مشترك وكانت لكل واحدة منها في نهاية المطاف زوايا مبثوثة في شتى المدن والقبائل امتثلت في بدايات ظهورها لقرار واحد فحسب، ثم دفعت الطموحات والمصالح الشخصية لأصحاب هذه الزوايا الفرعية إلى الانعتاق من وصاية الزاوية المركزية وهكذا كان الرباط الديني نفسه غير قادر إذن على خلق وحدة وطنية وذلك بتحطيم المقاصير التي تجزئ المغرب في واقع الأمر.فضلا على أن المخزن القديم قد حافظ بعناية على هذه التجزئة مستخدما الزوايا التي كانت أداة قيمة في السياسة الداخلية: فبفضلها حال دون قيام وحدة سياسية بين القبائل قد تكون بالنسبة إليه مصدر خطر. ومع الحفاظ في الوقت ذاته على إحساس معين بالاستقلال عن الأجنبي وبالحقد عليه لدرء [خطر] التوغل وكان ذلك بالنسبة إليه ذريعة مناسبة ليظهر أنه غير قادر على الترخيص للتدخل.ومع ذلك وجد على الدوام رباط يكتنفه الغموض استطاع حسب الظروف أن يصبح أقوى وأوثق عرى.

إن الدراسة المعمقة لنشاط الطرقية المسلمة هي بلا ريب إحدى الجوانب الأكثر أهمية في السياسة الأهلية بالمغرب بوجه خاص: حيث تملك فيه بالفعل الأغلبية العظمى من الطرقية الأكثر انتشارا في شمالنا الإفريقي زوايا رئيسية العيساويون بمكناس واحمادشة بجبل زرهون، الطيبيون، التهاميون بوزان والناصريون بتامكروت والكتانيون بفاس، والدرقاويون ببوبريح في بني زروال وفي مدغرة بتافيلالت ثم في طنجة إلخ. إن التوجه الذي توخاه الدرقاويون من عملية إحياء معتقدات الشاذلية لفائدتهم وجعلها وسيلة للتأثير على جميع الطرقية المنحدرة من الشاذلي، ثم المكانة السياسية والدينية التي يبذلون كل ما في وسعهم لنيلها من خلال هذه الوسيلة، كل هذا يسترعي بالتأكيد اهتماما جديدا بدراسة هذه الطرقية، ثمة حجة هنا تبين أن هذه الدراسة

تتداخل مع الدراسة المتعلقة بالتاريخ الاجتماعي للمغرب ومع التاريخ السياسي للعالم الإسلامي برمته.

هوامش المترجم:

ـــ ED. Michaux-Bellaire : « Essai sur L'Histoire des Confreries Marocaines » In Hesperis Tome I, 2e Trimestre Année 1921 , P : 141 & SS.

ـــ الفنيكة : Fanègue مكيال إسباني غالبا ما استعمله التجار في الموانئ .

ـــ جاء عرض الكاتب خاليا من الإحالات – ما جاء بين [ ] هو من وضع المترجم تطلبه سياق التعبير.

ـــ حول "الشوالق والنشرة أنظر Chiffons" -E. Dermenghem Le culte des saints dans l'Islam maghrébin , Paris1951, pp 121-157.

***) ـــ مقصورة وهي الدار الواسعة المحصنة (المترجم).

